أحمد زرّوق... الرْكيزة دَ الْبْرانَس

محمد الخدادي باحث وكاتب صحفي(فبراير2014)

(صور من اهداء نزهة العمري وادريس الهركال وسعيد عبدالنبي ومحمادي هرنان)

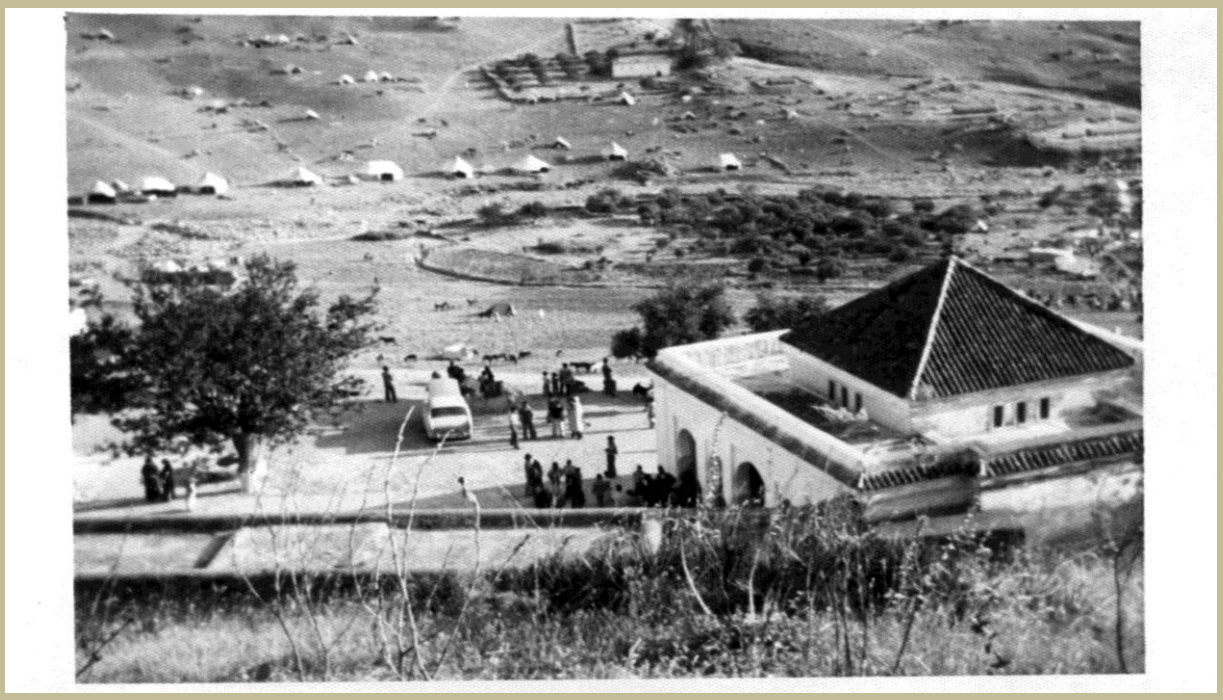

صورة للضريح سنة 1978

*تقول رواية محلية إن شخصا شريفا من سلالة الأدارسة، هو **يعقوب بن عبد الواحد ابن محمد بن يوسف**، وفد من منطقة **ارشيدة**، الواقعة بإقليم **الريف** حاليا، إلى الجزء الجنوبي الشرقي من قبيلة **البرانس**، وتحديدا إلى فرقة **أولاد جرو**، فنزل بخدمه وأبنائه وخيامه قرب جدول ماء في المكان المعروف حاليا باسم "الكَرْنة دَالرْحَى"، على الطريق الثلاثية الرابطة بين مدينة تازة ومركز **باب المروح**.*

وتوضح الرواية أن "سيدي يعكَوب" (يُنطق القاف في "يعقوب" معقودا بلهجة هؤلاء اليعكَوبيين، كما تنطق الجيم عند المصريين، وذلك دلالة على أصولهم العربية، وربما من اليمن تحديدا، حيث يسود هذا النطق إلى اليوم) اطمأن إلى ذلك المكان، واعتبره مناسبا للإقامة، فأمر خدمه بحط الرحال ونصب الخيام هناك، لكن، وبمجرد ما نصبوا الخيمة الرئيسية، وقبل تثبيت أوتادها في الأرض، هبت ريح عاتية فاقتلعتها، وألقت بنسيج الخيمة بعيدا.

حاول الخدم مرة ثانية وثالثة نصب الخيمة، وعند كل محاولة تكرر المشهد نفسه...

استغرب "سيدي يعكَوب" الأمر، و فطن إلى أن هناك سرا وراء الريح القوية التي تقتلع خيمته، فطلب من أتباعه التوقف، وأرسل في طلب أشخاص من سكان المنطقة، وسألهم إن كان هناك وَلِيّ "يخدمونه"، فقالوا نعم، إنه سيدي ***أحمد زرّوق***، *ودلوه على مكان ضريحه، على بعد حوالي 10 كلم غرب دلك المكان عند نهاية جبل ازدم.*

حينها، أمر "الشـــريف " خدمه بجمع الأغـــراض ، وقال إن للبلاد صاحبها، ولا يمكن ان يجتمع وَلّيان في مكـان واحد ثم عاد من حـــيث اتـــى.

وتضيف الرواية أن بعض أبناء "سيدي يعكَوب" لم يعودوا مع والدهم إلى بلده في ارشـــيـدة، وفضلوا البقاء هناك ومنهم تناسل الشرفاء اليعكوبيون الدين يشكلون الان جزءا من النسيج السكاني في فرقتي ***أولاد جـــرو واتـرايـبـة***

وهما نصف ربع بني فقوص، أحد أرباع ***كنفدرالية البرانس*** *، إلى جانب الأرباع الثلاثة الأخرى،* ***الطايفة، وربة، وبني بوعلا.***

لا شك أن هذه الرواية، ذات الطابع الأسطوري، تعكس تعلق البرانس بابن قبيلتهم، وافتخارهم بمقامه، ما دفعهم إلى جعله، هو الإنسان "العامي" والمتوفى، يهزم "شريفا" حيا من سلالة النبي، ويطرده من البلاد، بفضل مقامه الرفيع في ***درجات "البركة"*** *المنسوبة إليه.*

من هنا، يعتبر أهل قبيلة البرانس هذا الفقيه والقطب الصوفي "ركيزتهم" *(الركيزة: دعامة خشبية من جذع شجرة، تثبت في الأرض عموديا، لحمل سقف "النشرة" في بهو البيت)* *أي الضامن لهم، وواهبهم العون والبركة، والمساعدة على قضاء مختلف الأغراض، المادية منها والمعنوية.*

وبتعبير أهل البلد ولهجتهم، فإن "سيدي احْمَ- ّزروق هو الركيزة دَ الْبرانْسْ".

يُحذف دال أحمد بالإدغام، وتشدد زاي زروق. وعلى غرار نطق جميع المغاربة، يحذف البرانس همزة البداية في الأسماء الشخصية، فيقال حْمد، دْريس، بْراهيم، سْماعيل...

يستعمل البرانس الدال (د) بين اسمين في الدلالة على النسبة والإضافة، بمعني "ديال"، ولعله تقليص لهذه الكلمة، فيقال الدار دَ احْمد، ويثبت في حالة المتكلم والمخاطب والغائب: ديالي، ديالك، ديالو. وفي الأسماء الشخصية يعني الدال "بن" و"بنت": مثل محَمُدْ دَعْلى، زهرة دْ بوجمعة، ويستغنى عنه أصلا عندما يأخذ الاسم الأول صيغة أمازيغية، خاصة مع اسمي محمد وامحمد: مُحَنْدْ عْلى، امْحند احمد.

الأصل والمسار.. بين واد لحضر ومصراتة

*أنجزت بحوث ورسائل جامعية حول **أحمد زروق**، وتناول عدد من كتاب السيرة ترجمة الرجل، وكلها تتفق على ولادته بمدينة فاس يوم الخميس 18 محرم عام 846 هـ/28 ماي سنة 1442، مع إجماع على وفاته بمدينة مصراتة، في ليبيا، سنة 899 هـ.* (أنظر أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عبد الله كنون: مشاهير رجال المغرب، إدريس العزوزي: الشيخ أحمد زروق- تحقيق ودراسة لكتابه: عدة المريد الصادق).

*تنسبه أغلب المصادر إلى قبيلة البرانس، وبعضها يضيف إلى اسمه صفة البرنوسي، بواو أو بدونها. ويقول **أحمد زروق** عن نسبه، في قصيدة طويلة له حول عيوب النفس:*

يقول راجي رحمة الغفّار أحمد نجل أحمد الخضار
البرنوسي الأصل ثم الفاسي المشتهر بزروق بين الناس

وقال زروق عن لقبه "إنما جاءني من جهة الجد، كان أزرق العينين، واكتسب ذلك من أمه".

*إن زرقة لون العين ليست غريبة في المنطقة، إذ يتميز بها الكثير من الأفراد، على غرار العديد من سكان منطقة الريف، وتحمل أسر كثيرة، خاصة في ربع **الطايفة**، حيث يوجد ضريح أحمد زروق، لقب لزرق والزروقي، نسبة إلى لون العين، كما أن هناك منطقة "تاياست الزورق"، في سفح جبل **تاياست**، ومن أشهر أبنائها **امحمد الرهيف**، شيخ الغيوان بين ستينيات وثمانينيات القرن الماضي.*

ويعبر البرانس عن اللون الأخضر كذلك بالأزرق، انطلاقا من الأصل الأمازيغي، فيقال "الربيع ازرق، الزرع ازرق"، والمقصود أخضر، كما يستعمل الأزرق للدلالة على الثمار غير الناضجة، وكذلك للأكل قبل أن يطهى بما فيه الكفاية (الكرموس باقية زرقا، واللحم ازرق).

*وهناك إشكال آخرحول للقب الآخر لأحمد، "الخضار" أو "الحضار"، حسب المصادر. ورجّح **عبد الله كَنون**، عند تعريفه بأحمد زروق، في كتاب "ذكريات مشاهير رجال المغرب"، أن "يكون الحضار، بالحاء المهملة، هو الصواب"، نسبة إلى واد لحضر، الذي يصب فيه واد أهرار، حيث يوجد الضريح المنسوب لأحمد زروق، في دوار تليوان، وأقيم حوله مسجد بصومعة منذ عدة عقود، وهذا الأمر كان نادرا إلى حدود أواخر القرن الماضي، إذ ظلت المساجد عبارة عن بناية متواضعة، بما فيها تلك التي تؤدى فيها صلاة الجمعة.*

تلتقي كل المراجع في أن أحمد زروق رحل إلى تونس ودخل جامع الزيتونة، ودرس على علماء مدينة تونس، وأخذ عنهم ، ثم قصد جامع الأزهر، بمصر، حيث مكث في الأزهر سبع سنوات يدرس هناك، وينهل من معينه الفقه والتفسير والحديث والتوحيد والتصو ف. بعد ذلك، توجه إلى مكة لأداء الحج، ومن هناك عاد إلى مدينة فاس، لتعليم ونشر ما تعلمه من علوم خلال رحلته.

*يسجل بعض رواة سيرة الرجل أن "كل ذي نعمة محسود"، وأن "بعض الظلمة" دبروا لزروق مكيدة، فنصحه أحد شيوخه، **أبو عبد الله محمد الزيتوني**، بمغادرة مدينة فاس، فغادرها عائدا إلى مصر، قبل أن يرحل مجددا، ليستقر في مصراتة.*

*وبالإضافة إلى الأصل البرنوسي للرجل، قبل انتقال أسلافه إلى فاس، يتفق العديد من الباحثين على أنه توقف بعض الوقت، وهو في الطريق إلى المشرق، في المكان المعروف حاليا بضريحه في بلدة **تليوان**، على **واد أهرار**، أحد روافد **واد لحضر**، كما يشير إلى ذلك عبد الله كنون، مع العلم أن مجرى نهر واد لحضر، المرتبط بحوض **واد إيناون**، يشكل أسهل طريق طبيعي بين المنطقة ومدينة فاس، وعبره ظل السكان يتنقلون إليها لبيع بعض المنتوجات الفلاحية وجلب ما يحتاجونه من بضائعها إلى حدود منتصف القرن العشرين. كما شكل ممر تازة طريق القوافل في اتجاه الشرق، وضمنها قوافل الحج.*

وادي اهرار في الاسفل

*وهناك أيضا اعتقاد بأن دفين ضريح تليوان هو أحمد زروق الأصغر، ابن الشيخ أحمد زروق، وليس ضريح الأب، الذي توفي ودفن بمدينة **مصراتة**، في **ليبيا**.*

*بالمقابل، انفرد الباحث **محمد طيب** (وهو ليس مؤرخا) بالطعن في نسب أحمد زروق إلى قبيلة البرانس، معتبرا أنه من قبيلة **بني وریاكل، بدائرة غفساي**، إقليم تاونات، في كتاب بعنوان "الشيخ أحمد زروق: محتسب العلماء والأولياء" (2005)، وهي غير قبيلة بني وریاغل، الواقعة بإقليم الحسيمة.*

إلا أن الباحث لا ينفي عن الرجل صفة "البرنوسي" شكلا، إذ يورد أنه من دوار البرانس، الواقع في القبيلة المذكورة، دون أن يوضح سبب هذه التسمية. وعن ضريح تليوان، يقول إن الشيخ أنشأ زاوية هناك واستقر فيها بعض الوقت، في طريق رحلته إلى تلمسان.
ومعروف أن "البرانس" يوجدون في عدد من المناطق بشمال المغرب (في حد كورت، بإقليم سيدي قاسم، وفي زرهون، وحومة البرانس بطنجة).

يفسر هذا الأمر بالحركية العامة للسكان في المغرب، خلال القرون الماضية، بسبب الصراعات وضغوط المخزن، وهربا من المجاعات والأوبئة.

وفي بداية حركتهم، استقر المرينيون بمدينة تازة، قبل أن ينتقلوا إلى فاس ويتخذوها عاصمة، فبنوا فيها المساجد والمدارس، وحرصوا على استمالة نخبة الفقهاء والعلماء، في إطار سعيهم للحصول على المشروعية الدينية لدولتهم. ولا شك أن الكثير من أبناء المنطقة انتقلوا في ركب الحكام الجدد إلى فاس، ثم واصلت العاصمة الجديدة النمو والتوسع، مستقطبة أبناء القبائل المجاورة المتطلعين إلى تحسين ظروف عيشهم، من حرفيين وتجار ومغامرين وطلبة، وفي هذا السياق، يمكن تفسير نزوح أحد أسلاف أحمد زروق من قبيلة البرانس إلى مدينة فاس.

البركات.. عَطَّايْ لَعْزَارَا

*ظل البرانس دائما يحتفظون في اعتقادهم وفي سلوكهم بمكانة متميزة **لأحمد زروق**، وصلت إلى مستوى التقديس، ويعتقدون بعمق في كراماته وولايته، كوسيط بينهم وبين الله في تحقيق أمانيهم، وقضاء أغراضهم، الدنيوية منها والأخروية.*

*من هذا المنطلق، اقترن دائما ذكر "سيدي **احْمَ** زروق" كما ينطقه عامة الناس بترديد عبارة "شَايْ الله وْبِهْ" من طرف المتكلم ومن السامعين. ويبدو أنها تحريف، أو تصحيف، لعبارة "شاء الله به"، كدعاء توسلي إلى الله، بأن تحصل مشيئته، ويستجيب لصاحب الطلب والحاجة، بفضل ولاية أحمد زروق ومكانته عنده، كنوع من الشفاعة والوساطة.*

يطلب الناس كل شيء، تقريبا، من أحمد زروق، أو على الأقل يتوسلون به إلى الله من أجل تحقيق طلباتهم، وعادة ما تقترن الأمنية بوعد، في ما يعرف بالنذر، يتمثل في زيارة "مقامه"، وتقديم هدية، أقلها كيس من الشمع، الذي يستعمل في إضاءة الضريح ليلا.

ما إذا كان الطلب يتعلق بأمر كبير، فإن النذر يكون ذبيحة بخروف أو جذي، وقد تصل إلى ثور.

*هكذا دأب الرجال المتزوجون حديثا على اصطحاب زوجاتهم، غداة العرس، إلى الضريح، وتقديم ذبيحة إلى مقدم الزاوية، بأمل أن يأتي **المولود الأول ذكرا**، ومن هنا أخذ أحمد زروق لدى البرانس صفة **"عطاي لعزارا"**، أي واهب الأبناء الذكور.*

لعزارا، جمع العزري، وهو في الأصل الشاب في سن الزواج، ويطلق في الخطاب العام على المولود الذكر، فيقال بالمناسبة "مبروك العزري"، مقابل "العزبة" بالنسبة للبنت، وهي أيضا الفتاة البكر، في سن الزواج.

*إلا أن بركات **أحمد زروق** تشمل جل مناحي الحياة، من شفاء مختلف الأمراض ودوام الصحة، وحفظ المواشي من الأمراض، والمحاصيل الفلاحة من مختلف الأضرار، وتنمية التجارة، إلى المساعدة على حفظ القرآن.. وتعليم الرقص، وتدبير العلاقات الغرامية،*

فمازال يقال في المنطقة "أسيدي احْمَ زروق علمني نْهزْ" (أي ساعدني لأتعلم كيف أهز جسدي رقصا)، و"أسيدي احْمَ زروق بالشْمَعْ نْشَعْلك، جيب لي غْزالي ها العار عْلَك".

وفي نزاعات الحياة اليومية، ظل الناس يحتكمون إلى أداء اليمين في ضريح أحمد زروق، من أجل دفع تهمة أو إثبات البراءة، بأن يدخل المدعى عليه إلى الضريح، ويجلس أمام قبر صاحبه، ويقول "حَقْ هَاذْ الوَلِي وْمَا يَسْوَى عَنْدْ الله، مَا فعلت كذا"، أو "أرجعت لفلان دينه"...

غير أن هذا الخيار يعتبر أقسى امتحان يمكن أن يتعرض له الشخص، وحتى لو كان صاحب حق، فإنه عادة ما يمتنع عن ذلك، مفضلا التنازل عن حقه، خوفا من أن "يَنْفُذَ فِيهْ" صاحب "المقام"أي يصيبه مكروه .

كما أن طالب الحق قد يكتفي بمجرد قبول خصمه مبدأ القسم، ويتنازل له عن أداء الفعل، إشفاقا عليه مما قد يصيبه من مكروه إذا أقسم كاذبا، وكذا تفاديا للوم من طرف "اجْماعَة"، لأنه أخضع فردا منها لهذا الموقف الصعب.

يوجد قرب موقع الضريح جبل مواز لجبل أزدم، لكنه عاري من الغطاء النباتي، يقال إنه كان مكسوا بغابة من شجر الأرز والبلوط الأخضر (الكرّيش، بالتسمية المحلية)، وكان أحمد زروق يختلي فيه من أجل التعبد والتأمل، ومرة، علقت عمامته بغصن شجرة وانكشف رأسه، فدعا على الجبل قائلا "كِيفْ ما عَرّيتْ راسي، الله يْعَرّيكْ"، وبذلك ذهبت الغابة، على عكس جبل أزدم، الذي يؤوي الضريح والزاوية، عند نهايته على واد أهرّار.

لا شك أن اجتثاث تلك الغابة وقع بفعل تزايد النشاط البشري، من أجل الحصول على الحطب ودعائم سقوف البيوت، وتوسيع مساحات الزراعة، إلا أن الاعتقاد العام يصنف الأمر ضمن "بركات وأسرار" الشيخ.

امتد الاعتقاد في بركة أحمد زروق إلى مجال مقاومة الاستعمار الفرنسي، فقد واجه أبناء القبيلة توغل القوات الفرنسية بمقاومة عنيفة وطويلة، ولم تتمكن فرنسا من السيطرة المؤقتة على المنطقة إلا في أواخر سنة 1914، بعد حوالي ثلاث سنوات على توقيع معاهدة فاس للحماية مع السلطان عبد الحفيظ (30 مارس 1912).

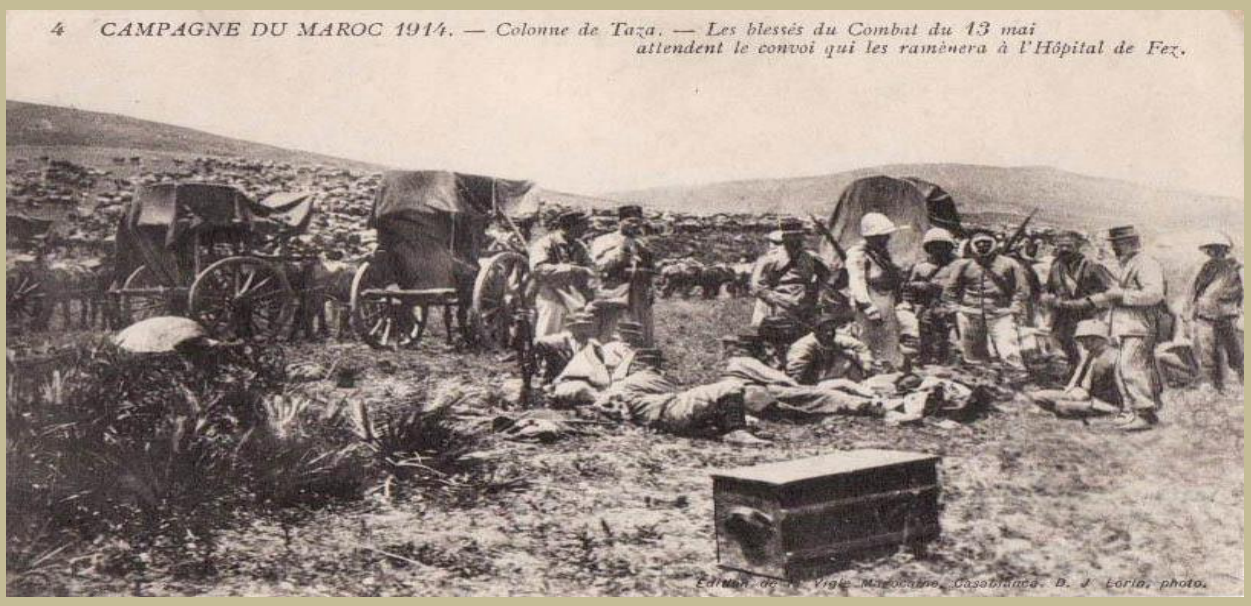

جرحى الجيش الفرنسي

في هذا السياق، تقول الرواية إن القوات الفرنسية عمدت إلى قصف الضريح بالمدفعية، حتى لا يحتمي به المقاومون، إلا أن القذائف كانت تنطلق في الاتجاه المعاكس، إذ تخرج من مؤخرة المدفع، وتنفجر في جنود القوات الغازية.

شاعت رواية أخرى عن مشاركة "رجال البلاد" في مقاومة الغزو العسكري الفرنسي، فبعد انتصاره على إسبانيا في معركة أنوال (1921)، انضمت قبيلة البرانس إلى ثورة عبد الكريم الخطابي، بزعامة القايد الخلادي وزعماء محليين، وتحصن المقاتلون في جبال بني يفتح والحبايلة وتايناست، وخاصة في جبل أمَسُـــافْ، المقابل لمركز باب المروج.

في هذا الجبل جرت آخر المعارك وأشرسها، إذ دامت حوالي ثلاثة أشهر في منتصف سنة 1925، ألحق خلالها المقاومون خسائر معتبرة بالقوات الفرنسية، التي لم تتمكن من السيطرة على الجبل إلا بعد استقدام تعزيزات كبيرة من مدينة تازة، وخاصة المدافع الثقلية المجرورة بالبغال، والطائرات المقنبلة.

في الواقع، تفسر تلك المقاومة بتوفر المقاتلين على امتياز المعرفة الجيدة بموقع القتال، في جبل وعر التضاريس، والقتال بالتناوب، وفق النظام المحكم الذي كان وضعه عبد الكريم، وعلى الإيمان بعدالة القضية، أمام عدو أجنبي وغريب، بجنود من اللفيف الأجنبي (La légion étrangère) "لاليجو"، ومن الجزائر والمستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا (ساليكَان، نسبة إلى السينغال).

ويبدو أن المقاتلين فوجئوا بصمودهم في وجه العدو المتفوق في كل شيء، أمام بنادقهم المتواضعة، وفي غياب تفسير عقلاني لذلك، كان طبيعيا اللجوء إلى المرجعية الدينية، فشاع أن "رْجالْ اَلَبْلادْ" قاتلوا إلى جانبهم على غرار الرواية التي تقول إن الملائكة قاتلوا مع المسلمين في إحدى غزوات النبي محمد . وإلى حين وفاته سنة 1993، ظل أحد المشاركين في تلك المعركة (والد كاتب هذه السطور)، متمسكا بهذه القناعة.

جبل امساف

عرف هؤلاء "المحاربون المتخفون" لاحقا باسم **"رْجالْ أمَسُافْ"**، ومازالت هذه التسمية متداولة إلى اليوم بين الأشخاص المسنين، واستعملها كثيرا شيخ الغيوان **امحمد الرهيف**، الذي تميز باستخدام مرجعية الحرب والمقاومة في قصائده، بحكم عامل السن، ونشأته في منطقة قريبة من جبل أمساف.

ومازالت إلى اليوم آثار القصف مرسومة على صخور الجبل، وظل الحدادون وعموم الناس يقصدونه لجمع شظايا القنابل المتبقية لصنع أدوات فلاحية، وفي الأعوام الأخيرة، زاد الإقبال على التقاط الشظايا الصغيرة، التي تباع كخردة.

بحكم الموقع الجغرافي للضريح، فإن أبناء قبيلة الطايفة هم الأكثر غيرة على أحمد زروق، إذ يعتبرون أنه منهم، وهم الأحق والأولى ببركاته، مع ما يتضمنه ذلك من مصالح مادية ومعنوية، ما جعل أبناء فرق القبائل الأخرى، خاصة أولاد جرو، يتهمون الطايفة باستغلال رمز القبيلة كلها بصورة سيئة.

برز هذا الأمر في الفراجة أي الغيوان، إذ اشتهر الشيخ الراحل **أحمد الكَرميش** بالإكثار من ذكر إسمه في قصائده، مثل قوله في تمجيد امرأة:

انْتِ مْقَامَكْ كْبِيرْ والناس مَنَّكْ خايفة
نْزُوروك بالهْدية كِيفْ سِيدِي احْمَ زروق ديالنا فَ الطايفة"

وهذا ما جلب له أحيانا بعض المتاعب مع شيوخ آخرين، مثل **بوجمعة الحداد** (الخدادي)، الذي كان يسبق **الكَرْميش** إلى ذكر فضائل الشيخ قائلا:

مجموعة الحداد (الخامس من اليمين) بالموسم

يا الشُيخْ الكّرميش ضَامَنْ الَبْلَادْ عْرَفْنَاهْ
هو سيدي احْمَ زروق وَاحْنا في حْمَاهْ
يَهْلَكْ دِي يَبْغي المضرة لْخَاهْ

أو الشيخ **عَلال دَ دْريسْ** الذي قال:

خَلّيوْنَا نْقُولُو الهضرة دَ الصّحْ

رَاهْ ضَامَنَّا الإمام الزروقي كْبِيرْ الصُّلاّحْ

أما عندما كان يصل الأمر إلى "المَعْيُورْ" بين الطرفين، فكانت اللهجة تحتد أكثر، وفي هذا الصدد قال الشيخ **الحداد** مرة:

يَاكْ سيدي احَمْ زروق شَايْ اللّهْ وْبِهْ

دْيَالْنَا كَامْلِينْ والبرانس كُلْهَا كَتْعَيّطْ عْلِيهْ

وْطَلْبُوا مْعَايْ، يَخْرُجْ فَ شِي وَحْدِينْ كَيَسْعَاوْا بِهْ

الشّيخ (بتشديد الشين مكسورة) في الفن البرنوسي، المعروف باسم الغيوان والفراجة، هو الشاعر الزجال، البارع في نظم القول الموزون والمقفى، أثناء حفلات الأعراس والمناسبات، ويشمل أعراض الغزل والفخر والمدح والهجاء والسخرية، والدين، كما يتطرق إلى مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية الراهنة، على المستوى المحلي والوطني والدولي. ويوجد فن الغيوان كذلك لدى قبائل **التسول والحياينة وغياثة الشرقية**، وينفرد بارتجال ونظم القصيدة في اللحظة ذاتها.

ومن أبرز أسماء الغيوان من الجيل الأول لدى البرانس، هناك **دْريس دَ الحاج** (من بني بوعلا)، **محند امحمد زانبو** (أولاد جرو)، **بغداد، وطاراش، ولحرش، والحمويي، والأخوان احميدة وعلال الهركَال** (بني يفتح)، **بن طكّة** (الطايفة). ومن الجيل الموالي، هناك **امحمد الرهيف، ولكحل(**تاياست) **والصنهاجي** (وربة)، **وأحمد الكَرميش، ومحمد امعاشّو** (الطايفة)، **وبوجمعة الحداد، وعبد القادر الهرنان، وعبد السلام بوحبال** (اولاد جرو)، **وعلال د دريس، وعزوز الطوّالي** (اترايبة).

لا شك أن هذا التعلق بصاحب "مقام" **تليوان** يستمد جذوره وأسسه من العامل الديني، خاصة من زاوية التصوف، الذي انتشر كثيرا في المنطقة، وظل قائما إلى حدود سبعينيات القرن الماضي، من خلال الزوايا الدرقاوية، والوزانية، والتيجانية، التي كان لها فروع وأتباع (فقراء) في كل ربوع البرانس.
وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فقد تميزت حقبة حياة أحمد زروق بازدهار النشاط الصوفي.

إلا أن الأمر قد يشكل، أيضا، امتدادا لمعتقدات وثنية سابقة على الإسلام، مثل تقديس بعض الصخور وعيون الماء والأودية والأشجار، وخير مثال لذلك، شجرة الزيتون البري العتيقة **(البرّية)**، التي يقام حولها موسم سنوي في **الكَوزات**، بربع وربة، غير بعيد عن مقر زاوية أحمد زروق، وتقوم حولها روايات أسطورية، أبرزها أن الطيور التي تقضي الليل فوق أغصانها تمتنع عن وضع برازها فوقها، كما يعتقد أن أعيان قبيلة أورية بايعوا إدريس بن عبد الله **(إدريس الأول)** في ظل تلك الشجرة، سنة 789 م (172 هـ).

البرية حيث تعتقد القبائل انها المكان الدي بويع فيه ادريس من طرف اورية

مقابل التقدير الكبير الذي يحظى به أحمد زروق لدى البرانس، فإنهم يعرفون، على العموم، أن له درجة عالية في سلّم الصلاح، وأنه ليس "شريفا"، أي ليس من سلالة النبي، لكنهم لا يدركون المكانة العلمية والتاريخية للرجل، الذي كان داعية للإصلاح من داخل المنظومة الدينية برؤية صوفية، كمرجعية فكرية وحيدة وسائدة في ذلك العصر. وعموما، فقد كان الرجل بمثابة مثقف ومفكر بمقاييس زمانه، في الفترة الأخيرة من عهد الدولة المرينية (1244-1465).

في هذا السياق، يستحسن عرض بعض ما كتبه عنه بعض من كتبوا سيرته، مثل ***أحمد بابا التنبكتي****، الذي أورد في كتابه "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، أن "تواليفه كثيرة، يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، ولا يخلو شيء منها من فوائد غزيرة وتحقيقات مفيدة، سيما في التصوف، فقد انفرد بمعرفته وجودة التأليف فيه".*

ويجمع كتاب سيرة الشيخ زروق على أن كتبه اتسمت بالتيسير والتبسيط، من أجل تسهيل الفهم، دون الخوض في تفاصيل الأمور.

ومن أعمال أحمد زروق المذكورة في كتب التراجم:

-39 مؤلفا في التصوف.
-10 مؤلفات في الفقه.
-6 مؤلفات في الحديث.
-3 مؤلفات في علم الحرف.
-مؤلفان في السيرة الذاتية والتراجم.
-مؤلفان في تفسير القرآن وسورة الفاتحة.
-مؤلفان في العقائد.
-مؤلفان في الطب.
-ديوان شعر.

فضلا عن شروح وتعليقات مختلفة، ورسائل متعددة، بين مخطوطة ومطبوعة.

اللامّة.. ثلاثة أيام من الفيجطة

*بالإضافة إلى الزيارات الفردية والأسرية، التي تكون على امتداد السنة، خاصة أيام الاثنين، الذي يتزامن مع السوق الأسبوعي، دأب البرانس على تنظيم احتفاء سنوي كبير بأحمد زروق، في تظاهرة بأبعاد اجتماعية وثقافية واقتصادية، يحضرها الأعيان وعموم الناس، رجالا ونساء، من الكبار والصغار، وتشارك فيها حتى القبائل المجاورة، وتنشطها **فرق الخيالة** والغيوان والطبل والغيطة، فضلا عن منشطي "الحلاقي" وألعاب الحظ والقمار، الذي يفدون من مدينة تازة.*

*إنها "اللامّة"، المعروفة في سائر أنحاء شمال المغرب، وهي "الجمع الكبير"، وما يعرف بالموسم في مناطق أخرى. وعرفت كذلك باسم **"الفيجطة"**، وهي تحريف لكلمة حفلة باللغة الإسبانية (la fiesta)، بما يحيل فعلا على الاحتفال، ويظهر وصول بعض التأثير من منطقة الحماية الإسبانية.*

*لا يستعمل البرانس مصطلح الولي، ويعوضونه بكلمة "السيد" بنفس الدلالة، و"السيد" عندهم بامتياز هو أحمد زروق، فعندما يقال **"اللّامة دَ السّيّدْ"**، يعرف الناس بمن وبماذا يتعلق الأمر، في تمييزها عن **"اللامّة د البرّية"**. ورغم تعدد "السادة" في المنطقة، إذ يتوفر كل دوار على واحد على الأقل، تقوم حوله المقبرة، فإن أيا منهم لا يرقى إلى مستوى ضريح و"مقام" أحمد زروق، فأصولهم مجهولة، وبناياتهم متواضعة، وتقتصر "بركاتهم" على أمور صغيرة ومحلية، غير مسلّم بها على مستوى القبيلة، بعضهم "يعالج" السعال، وآخر "يجعل" البقرة تدر الحليب، و"يحمي" زبده من السرقة بواسطة الأعمال السحرية.*
*في سبعينيات القرن الماضي، اشتهر أبناء **منطقة أولاد عبّو**، في ربع وربة، بإتقان لعبة الورق المعروفة باسم "الروندة"، فشاع أن لديهم **"سَيُدًا"** يهب هذا الامتياز، بأن يتبول الشخص على يديه، ويبيت في ضريحه*

مكتوف اليدين خلف الظهر، والواقع أن المسألة تقوم على تقنية تعرف محليا بعملية "لحساب"، بأن يتمكن اللاعب ذهنيا من ضبط جميع الأوراق التي تلعب في كل عملية، وينقصها من مجموع أوراق اللعبة (40 ورقة)، وبذلك يظل ملما بالأوراق المتبقية لدى منافسه.

*بعد إخضاع قبيلة **البرانس**، التي انضمت، كما سبقت الإشارة، إلى ثورة عبد الكريم الخطابي، غداة انتصاره على إسبانيا في معركة أنوال سنة 1921، عملت سلطات الحماية الفرنسية على مأسسة ضريح أحمد زروق، في إطار سياستها العامة بالمغرب، كما رسمها **المارشال ليوطي**، أول مقيم عام، القاضية بالحفاظ على البنيات الاجتماعية التقليدية، مع ضبطها ومراقبتها، فشقت طريقا من مركز **باب المروج**، مقر الحاكم العسكري، بواسطة نظام السخرة (la corvée، الكُرفي بالتعبير المحلي)، الذي فرضته على القبيلة انتقاما لتمردها، ونقلت سوق الاثنين من موقعه الأصلي على واد أهرار إلى قرب الضريح، وأقامت مركزا إداريا ومدرسة ومسجدا بصومعة، وبعض البنايات.*

*قام نظام السخرة الإجباري، الذي فرض على قبيلة البرانس، على أداء كل رب أسرة، أو أحد أبنائه، أربعة أيام من العمل الشاق بشكل دوري وبدون مقابل، بالحفر وتكسير الحجارة وتسوية الأرض.. ومن كان عاجزا بسبب السن أو المرض، يساهم بدابته، بغل أو حمار، لمدة ستة أيام. واشتهر شخص من الطايفة، يدعى(**أ. ش**)، كان "مخازنيا" مكلفا بضبط العاملين وحملهم على العمل بأقصى طاقتهم، بشراسته في التعامل معهم، إذ كانت مهمته تنحصر في ضربهم بقضيب حديدي **(مَعْكَافْ)**، قيل انه عندما كان يلتوي من شدة الضرب، يكلف أحدهم بتسويته، ليعيد استعماله. وفي بداية الاستقلال، وجد ذلك الشخص مقتولا خنقا في حقل قمح قرب مدينة تازة، ويعتقد أن الأمر كان تصفية من طرف عناصر سابقة في جيش التحرير، انتقاما من سيرته السيئة وتعامله مع المستعمر.*

كانت هذه الأعمال تتطلب أحيانا انتقال الأشخاص لمسافة تصل إلى عشر كيلومترات، كما فرضت أعمال السخرة لفائدة القياد وشيوخ المخزن، في الزراعة ورعي الماشة والبناء.

*استمرت المأسسة وتعمق الاختراق والضبط في عهد الاستقلال، بإعلان السلطة المحلية عن موعد "اللامّة" بواسطة البرّاح في الأسواق الأسبوعية، وحضورها بانتظام من طرف **عامل إقليم تازة**، الذي يؤدي طقوس الزيارة ويحضر بعض الأنشطة، مرفوقا بالقائد الممتاز لدائرة **تايناست**، وقائد مركز باب المروج، ورجال الدرك، وأعوان السلطة.*

*كما كان لحزب الاستقلال آنذاك حضور قوي بالمنطقة، وفي خريف 1956، نظم جولة لزعيمه **علال الفاسي**، شملت موقعي **البرّية والضريح**، حيث أقام تجمعا خطابيا، وساعد بالمناسبة عددا من طلبة القرآن على الالتحاق بجامع القرويين في فاس، لدراسة قواعد اللغة العربية والحساب، تمهيدا للانخراط في التدريس بالتعليم الابتدائي.*

*قبل بضع سنوات، ألغت السلطة تنظيم "اللامة"، بدعوى مشكل الماء، بسبب ضعف التساقطات المطرية، إلا أن المسألة قد تكون مرتبطة بالضبط الأمني، خاصة أنها منعت أيضا احتفالية **"شعبانة"**، التي كان ينظمها فقهاء وطلبة المساجد بفرقة أولاد جرو، في فصل الربيع، ثم استؤنف تنظيمها في السنوات*

الأخيرة، لكن بدرجة إقبال أقل عما كانت عليه في السابق، رغم تحسن وسائل المواصلات، وارتفاع مستوى عيش السكان.

الوفد الرسمي بالضريح

*يقوم مقام **أحمد زروق** على منحدر عند قدم **جبل أزدم**، من الجهة الغربية، وهو عبارة عن مبنى بحجرة متوسطة الحجم، تعلوها قبة، ويتوسطها ضريح مرتفع عن سطح الأرضية، مغطى بقماش أخضر، يلمسه الزائر ويقبله من جهة الرأس، بعد أن يكون وضع شموع أو نقود الزيارة في مكان مخصص لذلك.*

يطل الضريح على منبسط حول مجرى ماء موسمي، به أشجار زيتون عتيقة، وفيه يقام السوق الأسبوعي، ويقام فيه "محرك التبوريدة" بمناسبة "اللامة"، ومختلف الأنشطة الاقتصادية المرافقة لها. وأمام الضريح، توجد ساحة تنصب فيها الخيمة الرسمية، التي يتناول فيها العامل وجبة الغذاء، صحبة رجال السلطة وأعوانها وبعض الأعيان، بينما يلازم "الطُّلْبَة" حفظة القرآن المسجد الملحق بالضريح طيلة أيام الحفل.

إلى حدود الثمانينيات من القرن الماضي، ظلت "اللامة تعمر" بداية من مساء يوم الخميس، وتستمر إلى مساء يوم الأحد، مع بلوغ أوجها يومي الجمعة والسبت. يبدأ الأمر بتوافد وفود فرق القبيلة من مختلف الجهات، يتقدم الوفدَ شخص يقود عجل الذبيحة (الهدية)، يليه الشيخ (عون السلطة) والمقدمون والأعيان والفقهاء على ظهور الخيول والبغال، ثم فرقة الخيالة، وفرقة الغيوان، والطبالة والغياطة، وعموم الناس، الذين يفضلون الحضور ضمن الوفد، بينما يحضر أغلب الزائرين فرادى، أو ضمن جماعات صغيرة للأسر والأصدقاء والمعارف.

كانت فرق القبيلة تتنافس في توفير أحسن وفد، من حيث التنظيم، وحجم الهدية، وعدد الخيل في السربة... وعادة ما كان قدوم فرقة بني يفتح يستأثر بالاهتمام ويحظى بالإعجاب.

وقبل أن يستقر الوفد، يبدأ بتسليم الهدية لـ"المقدم د السيد"، ثم يزور الضريح من أجل "تقديم التسليم لْمُولْ الَبْلَادْ"، وطلب السلامة أثناء فترة الإقامة في جواره.

تُحضر بعض الأسر خيما صغيرة (قْيَاطَنْ) تنصبها على سفح مقابل للضريح، بعيدا عن أعين الناس، وهناك تقضي أيام الحفل، بينما يعود السكان القريبون نسبيا من مقر الضريح إلى حال سبيلهم في المساء، على أن يرجعوا إلى "اللامة" في اليوم الموالي، ويقضي آخرون الليل في عين المكان، أو لدى معارف وأصدقاء.

على عكس "لامّة البرية" في منطقة الكَوزات، حيث الإطعام مضمون بالمجان لكل من أراد من الوافدين، فإن الناس هنا يعتمدون على وسائلهم الخاصة في توفير الطعام.

وفي سنوات الثمانينيات، ظهرت الخيم الكبيرة والعصرية، التي فرضت السلطة اقتناءها على الكثير من العائلات، فأصبحت تستعمل خلال "اللامّة"، الأمر الذي سهل الحضور والمبيت وإعداد الأكل، كما توفرت في السنوات الأخيرة وسائل النقل والمواصلات، بشق طريق على مجرى واد أهرار، يربط المنطقة بمدينة تازة وبِحَدْ امَسِيلَة وتاياست، فضلا عن الطريق القديم من باب المروج.
ارتبطت "اللامّة" بأدوار وظيفية في حياة أهل القبيلة، على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فضلا عن البعد الديني، فهي تنعقد عادة في شهر شتنبر، عند اعتدال الطقس، وبعد جمع المحاصيل الزراعية، وبالتالي، تأتي في سياق الاحتفال والاحتفاء بالموسم الفلاحي.

ويساهم اللقاء الكبير بين مختلف فرق القبيلة في تبادل الأخبار وتمتين الروابط وإحياء الصلة وعقد الصداقات بين الأفراد والأسر والجماعات، وحل النزاعات الفردية والجماعية، ومصالحة المتخاصمين...

وهي أيضا فرصة للتعارف بين الشباب، ولمغازلة الفتيات وإقامة علاقات غرامية وجنسية، ولعب القمار (العَيْطَة، بالتعبير المحلي)، في جمع بين المقدس والمدنس.

في الجانب الاقتصادي، يشكل اللقاء مناسبة لانتعاش الحركة التجارية، ببيع الخضر والفواكه الموسمية من طرف السكان المجاورين (الطايفة)، ورؤس الأغنام والماعز، التي تذبح بالمناسبة، إذ يقبل الزوار على شراء اللحم في هذه المناسبة، وكذلك من طرف أفراد من قبيلة التسول المجاورة، الذي يحملون البطيخ بصورة خاصة.

وعلى عكس أيام السوق الأسبوعي، تعفى الأنشطة التجارية وكذلك دواب الركوب من أداء رسوم "الرحبة" والحظيرة (الكوري)، لأن الحاضرين زوار وليسوا متسوقين، يعتبرون ضيوفا في حرم الولي، وبذلك لا يسري عليهم قانون السلطة الزمنية.

*إلى حدود أواخر سبعينيات القرن العشرين، كان يقصد "اللامّة" شخص "مجذوب" يسمى **البريهي**، نسبة إلى منطقة أولاد بْرِيهْ، على الحدود مع قبيلة **مكناسة**، وهناك كانت تأتيه "الجذبة"، فينزع عمامته، ويلقي بها أرضا، ثم يشرع في التنبؤ بما سيحصل خلال السنة المقبلة، بواسطة أقوال غامضة، تحتمل كل التأويلات، والناس متحلقون حوله، يستمعون بإمعان ورهبة لما يصدر عنه، ويجتهدون في التأويل. ومرة، نصح*

بشراء الحمير والعناية بها، فاختلف الحاضرون بين الاستعداد للحرث وجمع المحاصيل بهذه الحيوانات في سنة ماطرة جيدة، وبين التأهب للرحيل على ظهورها، هربا من جفاف وقحط قادم.

كما كان يحضر ممارسو ألعاب الحظ والقمار ومنشطو الحلقة من مدينة تازة.
إن اللامة بالنسبة للعشاق مناسبة خاصة للاستمتاع ب "تبوريدة الخيل"،على أنغام الغيطة وإيقاعات الطبل.انغام وإقاعات، اقتصرت ممارستها على قبيلتي وربة وبني بوعلا. ودلك راجع في الغالب الى عامل القرب الجغرافي، وتأثر القبيلتين ببلاد جبالة.
أما المتعة الكبيرة فكانت مع الفرايجية/ الغيوان، بفضل توفر فرق كثيرة وأسماء وازنة من الشيوخ، من ***أولاد جرو، وسيايرة، والشقارنة، وأولاد الصغِيوَر، وأولاد حمّو، وحتى من قبيلة التسول***، *القريبة نسبيا من المنطقة.*

في أواخر الستينيات من القرن الماضي، أطلقت السلطات أوراشا في إطار التعاون الوطني لشق الطرق بالبوادي وإصلاحها، وكانت تدفع نصف أجور العاملين (4 دراهم في اليوم) نقدا، والنصف الآخر بدقيق في أكياس بيضاء من الثوب، حصل عليه المغرب مساعدة من الوكالة الأمريكية للتعاون الدولي (مكتوب على كيسه بالعربية والإنجليزية: هدية من شعب الولايات المتحدة الأمريكية، ليس للبيع أو المبادلة). وبسبب الفقر، كان بعض الناس يستعملون من تلك الأكياس أقمصة للأطفال، إلا أن السلطات عادت للاحتفاظ بالأكياس الفارغة، إما بدافع الضرورة، لإعادة تعبئتها بالدقيق، أو وقع اختلاسها من أجل بيعها.

استغل الفرصة شيخ الغيوان الراحل، ***الحسين اشريّط*** *(كان ينطق القاف (ق) من الحلق، مثل الهمزة (ء)، وهو من قبيلة التسول، لكنه كان مندمجا مع البرانس بحكم القرابة، إذ كانت والدته من قبيلة الطايفة)، وخاطب رجل السلطة في "زرعة" أثناء "اللامّة" متسائلا:*

نْطَلْبَكْ يَا سِيدْ العامل، اسْمَعْ لَكْلَامْ دْ هَاذ اشْرَيّطْ
رَاهْ مَا يْقُولْ عَيْبْ مَا يَغْلَطْ، قُلّي شْنَا فَ الْحْنِيشَة دَقْبَطْ
وَيْلاَ نْسَارِيتْ فَ الَقْبَايِلْ نْصِيبْ النَّصْ دَ الدْرَارِي أَيْدُورُوا بَالزْبَطْ؟! *(أي يتجولون عرايا).*

وقيل آنذاك إن العامل طلب اشريط واستفسره في الموضوع، ثم أمر بعدم حجز الأكياس الفارغة.

هذا هو ***"سيدي احْمَ زروق"****، كثير من الأسطورة على خلفية معطيات تاريخية، إنه* ***"الرْكيزة دالبرانس"****، هو "السيد" بامتياز، الولي المتعدد الاختصاصات، الذي ييسر الزواج، ويعطي النسل والأبناء، ويسهل على الحامل الوضع عند المخاض... يهب البركة، ويحمي من المصائب ويشفي المرضى، ويقاوم الغزو الأجنبي من أجل محمييه، في سياق معتقدات أسطورية، لها دور نفسي وسيكولوجي واجتماعي في الحياة اليومية للناس.*